لوين روح؟

مشروع لنا جميعاً: لمن بقينَ، ولمن رحلنَ لكنّهن لا يستطعنَ المغادرة أبداً.

الإعداد: Arzé Nakhlé

RIANNA (WITH MIRROR), AMSHIT, LEBANON, 2024

وُلدت رانيا مطر ونشأت في لبنان لأبوين فلسطينيين. كبرت خلال الحرب في لبنان، ثمّ غادرت البلاد عام 1984 للدراسة في الولايات المتحدة، ظناً منها أنّ هذه المرحلة لن تستغرق سوى بضع سنوات. لكن ها هي اليوم، بعد أربعين عاماً، لا تزال تقيم في الولايات المتحدة. وقد تدرّبت على مهنة الهندسة المعمارية، ورغم أنها تلقّت الكثير من دروس الفنّ في الجامعة، إلاّ أنّها بدأت تهتمّ بالتصوير الفوتوغرافي حين كانت حاملاً بطفلها الرابع. حيث كانت ترغب في التقاط صور أفضل لأطفالها، فبدأت بحضور ورش عمل متخصصة في التصوير، وسرعان ما وقعت في حبّ هذا الفنّ وهذه الحرفة. بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، أدركت أنّها، بصفتها أميركية من أصول عربية، بدأت ترغب في رواية قصة مختلفة عن الشرق الأوسط. وبشكل تدريجي وتلقائي وفطري، أصبحت مصوّرة. لا تزال رانيا مطر مرتبطة جداً بلبنان. فهذا البلد قد صاغ شخصيتها، وهو جزء لا يتجزأ من هويتها. واليوم، يزداد شغفها بسرد قصص من لبنان لتكون شاهدة على أراضيه وتاريخه. إنّ تجربتها المتعدّدة الثقافات وسردها الشخصي يثريان أعمالها الفوتوغرافية. وفي ما يلي، نغوص معاً في عالم كتابها "Where Do I Go؟" لوين روح؟".

RANIA MATAR

© SHANTI KNIGHT.

لقد رأيتُ نفسي فيهنّ

يرتكز كتابك "Where Do I Go؟ لوين روح؟" إلى سؤال تطرحه الكثير من الشابّات اللبنانيات اليوم. كيف تأثّرت بهذا السؤال شخصياً في البداية؟

بدأ هذا العمل كتوثيق تعاوني لعلاقة الشابّات اللبنانيات ببلدهنّ في أعقاب انفجار مرفأ بيروت عام 2020؛ شابّات أثّرنَ فيّ بعمق وهنّ يزِنن الأثقاض، ويتطوّعنَ بلا كلل، ويقدّمنَ الكثير من ذواتهنّ دون تردّد. كانت الكثيرات منهنّ قد بدأنَ بالفعل، في صمت، يقيّمنَ خياراتهنّ. لقد كان هناك أمل وطاقة جبّارة في لبنان خلال احتجاجات 2019 وحتى مطلع 2020. والآن، تحوّلت أحلامهنّ مجدّداً إلى ركام. لقد رأيت نفسي فيهنّ. كنت في العشرين من عمري عندما غادرت لبنان عام 1984، في خضمّ الحرب، للدراسة في الولايات المتحدة. كان ذلك أحد أصعب القرارات في حياتي: الرحيل أم البقاء. وجدت هؤلاء النساء أنفسهنّ عند مفترق الطرق ذاته؛ نفس التقاطع المستحيل في الطريق الذي يفرّق مسارها بين الابتعاد عن العائلة والوطن وكلّ ما هو مألوف، وبين البقاء في بلدٍ مهشّم، متشبثات بالأمل كفعل إراديّ.

ما ظننته في البداية مشروعاً محدود النطاق، تحوّل إلى عمل طويل الأمد، مع استمرار تدهور الأوضاع في لبنان: الانهيار الاقتصادي الشامل، وإغلاق طويل بسبب جائحة كورونا، وحرب أخرى في العام 2024. السؤال الجوهري في هذا العمل - "لوين روح؟" - لم يختفِ أبداً؛ بل كان يطفو على السطح ويعود للظهور بين لحظات الأمل الوجيزة والهشّة.

هؤلاء النساء في عمر ابنتيّ. ولو بقيت في لبنان، لربما كانتا من هؤلاء الفتيات حرفياً؛ تقفان حيث وقفتُ يوماً، تواجهان السؤال المستحيل ذاته الذي لم أتخيّل أبداً أن الجيل القادم سيضطر للإجابة عليه. ومع ذلك، ولد لديّ إدراك مؤلم بأنّ التاريخ يعيد نفسه. وأودّ أن أشير إلى صورة واحدة حدّدت مسار عملي ومنحتني العنوان: على جدار متداعٍ لمبنى مهجور، رأيت عبارة مكتوبة باللغة العربية: "لوين روح؟". كنت مع بيرلا، وهي شابة ألقت بنفسها فجأة على ذلك الجدار. في تلك اللحظة بالذات، أدركت أنّ هذا التساؤل سيصبح عنوان هذا العمل الفنّي.

لقد وصفت هذه الصور الشخصية بأنّها تعاون مع النساء، حيث يسهمنَ في تشكيل الصورة التي يظهرنَ بها. من خلال ذلك، منحتهنّ مستوى معيّناً من حرية القرار. ماذا يعني هذا بالنسبة لك كفنّانة، وما أثره على أصالة العمل؟

سأبدأ بوصف العملية منذ بدايتها. كان هدفي هو التعاون مع أي امرأة ترغب في العمل معي. قبل سفري إلى لبنان، عادةً ما أنشر إعلاناً عبر Instagram أشرح فيه طبيعة مشروعي، وأطلب من المهتمّات بالتعاون التواصل معي. طوال فترة هذا المشروع، كان التجاوب مبهراً. في البداية، كنّا نحدّد موعداً للحديث عبر الهاتف لنضع خطة عمل. أحاول دائماً البدء بقصصهنّ الشخصية وعلاقتهنّ الفردية بلبنان، وغالباً ما نخطّط لجلسة التصوير بناءً على ذلك بالضبط، لكنّنا أحياناً ننتقل إلى التاريخ والذاكرة الجماعية بدلاً من الفردية. لم أطلب منهنّ صوراً مسبقة أو أي شيء من هذا القبيل؛ فبالنسبة لي، أي امرأة مستعدّة لخوض التجربة والتعاون، هي حتماً شخصية مثيرة للاهتمام للعمل معها. وقد كان هذا هو الحال دائماً. عندما نلتقي، نكون في البداية متردّدتين بعض الشيء، لكنّ جلسة التصوير تتطوّر بشكل عفوي كلّما شعرنا بالارتياح تجاه بعضنا البعض. من المهم بالنسبة لي أن نمنح بعضنا مساحة كافية لهذه التجارب الاستكشافية الحذرة.

غالباً ما أبدأ الجلسة في أماكن تشعر فيها النساء بالراحة، وبملابس من اختيارهنّ. ومع تطوّر الجلسة، يبدأنَ بالشعور بارتياح أكبر، وأبدأ أنا باستشعار طاقتهنّ وحضورهنّ بشكل أفضل. نطوّر تدريجياً تفاهماً ضمنياً، ونتبادل الأفكار. وأحرص دائماً على جعلهنّ يشعرنَ بالترحيب لاقتراح أفكارهنّ، وأقدّم لهنّ الدعم الإيجابيّ. وعندما تكون لديّ اقتراحات خاصّة بي، تعلّمت أن أدرك حدود نطاق راحتهنّ قبل أن أطلب أي شيء. أعتقد أنّ هناك احتراماً وثقة متبادلين يجب أن يتطوّرا لإنجاح الجلسة.

AYA (DANCING), BEIRUT, LEBANON, 2022 (WALL ART BY NABIL ASSAF)

وأحرص دائماً على أن يكون وقتنا معاً ممتعاً، وتجريبياً، وآمناً، ومثمراً.

في نهاية المطاف، تعود مسؤولية اختيار الصور والتقديم النهائي لي بالكامل. أحرص على أن تمثّل الصور بصدق التجربة التي شاركناها، والمرأة التي تظهر في الصورة؛ فمن المهمّ ألاّ تشعر أي امرأة بأنّه تمّ تصويرها بشكل خاطئ. لكن هذا يعني أحياناً أن بعض الصور، رغم كونها نتيجة للحظات جميلة شاركناها، لا تجد طريقها إلى النسخة النهائية. وأنا أتأكّد من أنّ كلّ امرأة أعمل معها تدرك ذلك. بالنسبة لي، اللحظة التي نتشاركها هي الجزء الأجمل في التعاون والتجربة، وأمل أن تكون تجربة تمكينية لهنّ أيضاً. ولكن في النهاية، أنا من يتحكّم بالتحرير والاختيار النهائي. أشارك الصور ونسخاً مطبوعة صغيرة مع كلّ امرأة. بالإضافة إلى ذلك، حصلت جميع النساء اللواتي يظهرنَ في الكتاب على نسخة منه. فهذه طريقتي لشكرهنّ. إذ كلّ صورة موجودة بفضل المرأة التي فتحت قلبها لي ووثقت بي، وأنا لا أعتبر هذه الثقة أمراً محسوماً.

لقد غادرت لبنان في العشرين من عمرك، وعدت لاحقاً لتصوير جيل جديد يواجه خيارات مشابهة. هل رأيت نفسك في سنّ أصغر منعكسةً فيهنّ؟ وكيف ساهم ذلك في تشكيل هذا العمل؟

في عام 1984، كنت في العشرين من عمري وأدرس الهندسة المعمارية في الجامعة الأميركية في بيروت. كان الوضع في لبنان حينها قد تدهور بشدة، وبدا وكأن الحرب تقترب أكثر فأكثر من ديارنا. انتقلت إلى جامعة Cornell ظناً منّي أنّ غيابي لن يتجاوز 3 أو 4 سنوات لإنهاء دراستي فحسب، لكن ها أنا بعد أكثر من 40 عاماً، ما زلت أقيم في الولايات المتحدة وأنشئ عائلتي هنا. في العام 2020، وبعد انفجار مرفأ بيروت، بدا أنّ الكثير من الشباب يقفون عند المنعطف ذاته: هل يبقون أم يرحلون؟ بدأ هذا المشروع حين عدت إلى بيروت في ذلك الوقت، وبدأت العمل بشكل وثيق مع نساء من مختلف أنحاء البلاد. لقد ألهمنني، وأثّر فيّ حبّهنّ للبنان والتزامهنّ تجاهه بشكل لا يوصف. بدأت التعاون معهنّ لرواية قصصهنّ، ورأيت تجربتي الشخصية في الكثير منهنّ. فقد كنّ يواجهنَ الآن القرار المؤلم ذاته: الرحيل أم البقاء. لقد كنت أدرك تماماً ما يشعرنَ به، رغم مرور كل هذه السنوات.

هناك توتّر خفيّ في أعمالك بين البقاء والرحيل. هل كانت هناك قصة محدّدة أو مكان ترك أثراً أعمق في نفسك؟

كلّ صورة وكلّ تفاعل ترك أثراً فيّ. التوتر موجود دائماً؛ فحتى لو رحلنا، نحن لا نرحل أبداً. البعض من هؤلاء النساء غادرنَ، والبعض الآخر بقي، وبعضهنّ رحلنَ لكنهنّ كنّ يعدنَ مراراً، أو غادرنَ ثم عدنَ للاستقرار، بينما الأخريات مثلي، رحلنَ لكنهنّ لم يغادرنَ حقاً. وحتى إن ابتعدنا، فنحن نعيش في مكانين في آنٍ واحد. في هذه اللحظة بالذات، وبينما نراقب من الخارج هذه الحرب الفظيعة (أبريل 2026)، نشعر أننا نعيش حياتين

PETRA WITH MISS LEBANON 1972, (BOTH 20, 50 YEARS APART) GEMMAYZE, BEIRUT, LEBANON, 2022 (WALL ART BY BRADY BLACK)

FAWZIA, BHAMDOUN SYNAGOGUE (WE ARE ALL ONE), BHAMDOUN, LEBANON, 2023

متوازيتين: نحن نؤدّي وظائفنا اليومية، نعم، لكنّنا أموات من الداخل. نشعر بعبء وثقل في أعماقنا، بينما نتابع الأخبار التي بالكاد تذكر لبنان. لذا نعم، لقد غادرنا، لكنّ قلوبنا وأرواحنا لا تزال هناك.

ياسمينا، التي صوّرتها بعد انفجار مرفأ بيروت عام 2020، كان لديها وشم على ظهرها يحمل كلمة "قوة". كان ذلك الوشم بمثابة رسالة موجّهة لنفسها لتبقى صامدة. وحين رأيتها في الخريف الماضي، كانت قد غطّت ذلك الوشم بزهرة، وقالت لي: "أنا بحال أفضل بكثير الآن". أفكّر بها الآن، وهي عالقة مجدداً تحت القصف. ويبدو أنّ السؤال الذي اتخذته عنواناً للكتاب، "لوين روح؟"، عاد يفرض نفسه بإلحاح مؤلم من جديد.

> **كلّ صورة وكلّ تفاعل ترك أثراً فيّ**

KFARMATTA, LEBANON, 2021 ليلى بيرلا, WHERE DO I GO

هل كان هدفك من هذا العمل تحدّي الصورة التي يروّج لها الإعلام الأجنبي عن النساء اللبنانيات والعربيات؟

بالتأكيد. أجد نفسي أعود دائماً إلى هذه المقولة لإيتيل عدنان التي تركت أثراً عميقاً في نفسي:

"أنا أميركية وعربية في الوقت ذاته، وهاتان الهويتان تتعارضان أحياناً، ليس كل يوم، ولا حتى غالباً، ولكن بين الحين والآخر، أصبح كجبل صدّعه زلزال مروّع."

— إيتيل عدنان، "في قلب دولة أخرى"

أشعر بأنّنا نعيش إحدى تلك اللحظات في وقتنا الراهن. ومع ذلك، أؤمن بأنّ هذه المرحلة تحمل فرصاً أيضاً؛ فهي دعوة لاستحضار إبداعنا، وتأكيد إنسانيتنا المشتركة، والقيام بدورنا كرسلٍ بين العالمين اللذين صاغا هويتنا. وآمل، على نطاق شخصي، أن أنجح في إيصال أصواتنا من لبنان، وأصوات النساء اللواتي سمحنَ لي بشجاعة بأن أكون صوتاً لهنّ في صوري. لا يمكننا يوماً أن نتوقف عن كوننا شهوداً على قصصنا وتاريخنا. وبصفتي أميركية من أصل عربيّ أعيش في الولايات المتحدة، يشعر المرء باستمرار بأننا مطالبون دائماً بتبرير إنسانيتنا. فغالباً ما يميل الغرب إلى النظر إلى شعوب الشرق الأوسط، وبخاصة النساء، نظرة أحادية البعد. وآمل أن يسهم عملي في تحطيم تلك الرؤية المحدودة.

الفنّ حتماً لغة عالمية. ومع ذلك، هل تعتقدين أنّ جمهور المعرض الحالي يتفاعل مع الصور بطرق مختلفة بناءً على خلفياتهم؟

رغم أنّ صوري قد لا تقدّم حلولاً أو نهايات حاسمة، إلاّ أنني آمل أن تدعو المشاهد للتريث والبحث عن الجمال والأمل والإنسانية المشتركة والسحر الذي لا يزال قائماً رغم كل شيء. إنها رسائل حبّ منّي إلى نساء لبنان. هذا المشروع لنا جميعاً: لمن بقينَ، ولمن رحلنَ لكنّهن لا يستطعنَ المغادرة أبداً. ■